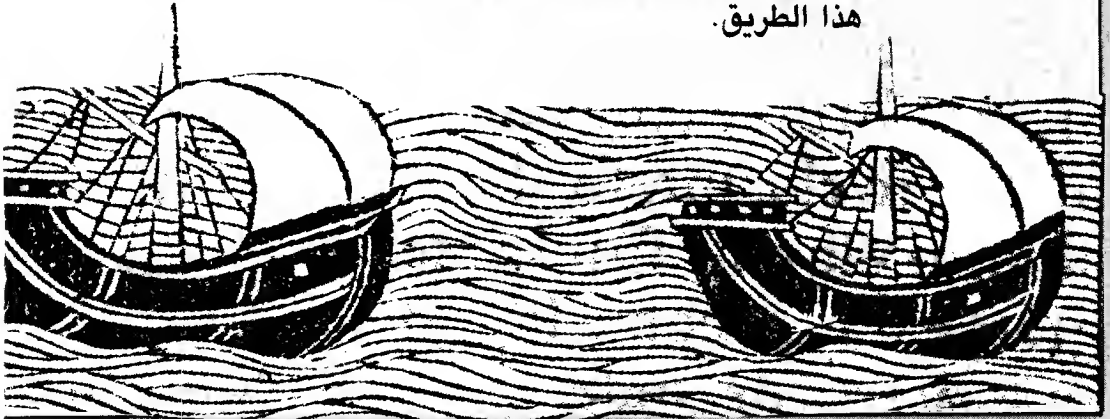


الرحالة البرتغاليون في خلال القرنين السادس عشر

ظل العرب والمسلمون يسيطرون على التجارة ما بين الشرق والغرب حتى نهاية العصور الوسطى وبداية العصور الحديثة، وذلك عبر طريقين رئيسيين هما: طريق البحر الأحمر ومصر، وطريق الخليج العربي وبلاد الشام، وكلاهما كان تحت هيمنة العرب. وكانت المشكلات والخلافات السياسية التي تنشأ أحيانا تؤدي الى اغلاق احدهما او كليهما، وحينما يغلق الطريقان في وقت واحد فان مدد البضائع الشرقية كان ينقطع عن اوروبا الا بالقدر الذي يمكن فيه سلوك طريق وعر غير مأمون عبر آسيا الوسطى. (١) وكانت المدن الإيطالية، وخاصة جنوا والبندقية، هي أكثر الدول الأوروبية استفادة من تجارة الشرق، إذ كانت تحتكر توزيعها في مختلف أنحاء القارة الأوروبية، مما جعل أسعارها تتزايد باطراد، فكثف ذلك الجهود لاكتشاف طريق غير مطروق يصل الى الهند، وكانت دولة البرتغال الصغيرة الواقعة على المحيط الأطلسي هي الدولة التي كرست نفسها في البحث عن مثل هذا الطريق.



الخليج العربي والسّابع عشر



الرحالة البرتغاليون الأوائل وأهداف السّياسة البرتغالية

بقلم: الدكتور طارق نافع الحمداني

أواخر هذا القرن، وذلك على أيام ملكهم
المسمى جون الثاني ١٤٨١ - ١٤٩٥. إذ
كان هذا الرجل متشوقاً لنشر المسيحية

اتجهت انظار البرتغاليين نحو الشرق منذ
أوائل القرن الخامس عشر، إلا أن اندفاعهم
بنجاح ناحيتي الشرق والغرب لم يتم إلا في

وتوسيع رقعتها، وارتياح طريق تجاري جديد نحو الهند، واكتشاف الأراضي التي يجلب منها الفلفل والقرفة وشتى أنواع التوابل^(٢) وعلى أساس هذه الاعتبارات أرسل ملك البرتغال العديد من الحملات البحرية والبعثات السرية، وكانت أولى تلك الحملات ما قام به بارتولوميو دياز عام ١٤٨٦، والتي دار فيها حول الطرف الجنوبي من افريقيا، واعقبته حملة فاسكودي جاما عام ١٤٩٧ التي قادت البرتغاليين الى الهند. وما أن حل القرن السادس عشر حتى كان البرتغاليون يسيطرون على الطرق التجارية البحرية ما بين الشرق والغرب دون منازع، وانتهجوا في هذا المضمار الاساليب المختلفة لاحتكارها. من ذلك أن البرتغاليين أصبحوا يأملون بعد افتتاح الطرق البحرية الى الهند، مروراً برأس الرجاء الصالح، أن تتحول مجمل التجارة الشرقية الى ايديهم. وكانت الخطوة الاولى التي قاموا بها هي التمرکز في سواحل الهند، ومن ثم قرروا القيام بمراقبة حركة النقل التجارية في الخليج العربي، حيث انشأوا عدداً من القلاع الحربية في هرمز والبحرين وعمان، كما حاولوا اغلاق مدخل البحر الاحمر للغرض نفسه^(٣) وبعد ان اطمأن البرتغاليون الى استحواذهم الكامل على طرق التجارة البحرية، راحوا يعملون على إعاقة حركة النشاط التجاري عبر الطرق البرية التي كانت ما تزال قائمة بين بعض المراكز التجارية في الخليج العربي والبحر الاحمر وتلك الواقعة على البحر المتوسط، بطرق برية بحرية مشتركة.^(٤)

ومن الطبيعي فان هذه السياسة التجارية الهادفة الى تقوية حركة النقل التجاري بحراً باتجاه لشبونة، على حساب الموانئ الموجودة في الشرق العربي، سببت

معاداة القوى القائمة آنذاك، ونقصد بذلك الممالك ومن بعدهم الاتراك العثمانيين. وقد جعلت هذه العداوات امكانية استمرار الترحال عبر الأراضي العربية أمراً محفوفاً بالخطر خلال القرن السادس عشر.^(٥)

وساندت الجهود البحرية البرتغالية جهوداً اخرى اتسمت بالسرية لجمع المعلومات عن مصادر تجارة الشرق، وطرق هذه التجارة عبر الأراضي العربية، وانواع البضائع الشرقية واسعارها وما الى ذلك. وقد وكل الملك باحدى هذه البعثات بدرودي كوفلهام Covilham والفونسو دي بايفا وكان كوفلهام هذا يجيد عدة لغات ومنها اللغة العربية منذ أن كان أسيراً في المغرب وحدد الملك مهمة هذين الرسولين في ثلاث نقاط هي : جمع المعلومات عن الحبشة التي كانت تعرف في أوروبا حينئذ باسم مملكة القديس جون أو يوحنا Prester John، ومعرفة المصادر الاصلية للتوابل، ومعرفة طرق التجارة عبر الاقطار العربية حتى تصل الى البندقية.^(٦) وقد اقلع هذان الرجلان سنة ١٤٨٧ عن طريق برشلونة، نابولي، وروندس الى القاهرة بعد ان إرتدوا زي التجار، وهناك تمكنا من ان يندسا بين جماعة من التجار المغاربة الذاهبين الى الطور على البحر الاحمر، واتجهوا نحو سواكن وعدن. وفي عدن انفصل كوفلهام وبايفا عن بعضهما البعض، حيث اتجه الثاني الى الحبشة ولكنه توفي بعد قليل، بينما واصل كوفلهام سيره نحو الهند فوصل الى كنانور وكلكتا وغوا (جوا) مستقصياً أينما حل عن التوابل. ومن هناك سافر كوفلهام مع طائفة من التجار العرب إلى هرمز - كبرى المستودعات لتجارة الشرق. وبعد أن أحيط علماً بالتجارة التي تجري في هذا

الميناء المزدهم بالاعمال أبحر الى عدن ثم زيلع فسفالا ومنها عاد الى القاهرة. (٧)

وبينما كان كوفلهام على وشك الرحيل الى البرتغال توجه لمقابلته يهوديان (٨) هما ابراهام دي بيا ويوسف لاميجو، وقد سلماه تعليمات جديدة من حكومة البرتغال عن مهمته الجديدة. وسلم هو احدهما تقريره الطويل عن رحلته السرية لتوصيله الى البرتغال، بينما اصطحب الثاني الى هرمز ليكتب بدوره تقريراً آخر عنها نظراً لأهميتها التجارية الكبيرة، على أن يتوجه بعدها الى الحبشة لكتابة تقرير خاص عنها. ونجح كوفلهام في القيام برحلة جديدة، فاتجه الى هرمز مع زميله الجديد ثم عاد الى جدة، ومكة والمدينة، فسيناء، وعن طريق الطور ابحر الى عدن ومنها الى زيلع ثم توغل داخل الحبشة حيث قابل النجاشي، الا انه حكم على كوفلهام بأن يبقى في الحبشة طيلة حياته، إذ لم يسمح له بمغادرتها بعد مقابلة النجاشي وذلك طبقاً لخطة الحذر الحبشية بحجز من يزورها من الاجانب. (٩)

وهكذا استطاعت هذه البعثة الحصول على البيانات الخاصة بالتجارة الشرقية من حيث حجمها وفئاتها وما الى ذلك. ويبدو انها حصلت على خرائط عربية عن المحيط الهندي ومعلومات تفصيلية عن التيارات البحرية والرياح الموسمية في هذا المحيط، وليس أدل على ذلك مما جرى اثناء مقابلة كوفلهام لفرانسييسكو الفاريز الذي مثل بلاده في الحبشة من ١٥٢٠ إلى سنة ١٥٢٦، حيث استفسر من الاخير عما إذا كان للخرائط التي أرسلها مع المبعوث اليهودي المشار اليه أعلاه من ثمانية وعشرين سنة بعض الفضل في تحقيق ما حققه فاسكودي غاما. (١٠) وبدون شك فان المعلومات

والخرائط البحرية التي قدمها الرحالة كوفلهام ومن معه الى السلطات الحاكمة في لشبونة، كانت نعم المعين في تقدير الموقف والمضي قدماً في ايفاد الحملات الكشفية الجغرافية ابتغاء تحقيق الهدف الاساسي وهو الوصول بحراً الى الهند.

ومما يلفت النظر أن الرحالة البرتغاليين، المبكرين منهم او المتأخرين، قد جاءوا الى الشرق أما برفقة الاساطيل البرتغالية حيث قدموا ليشهدوا استقرار النفوذ البرتغالي، كما هو الحال بالنسبة ليريز وباربوسا، أو انهم اوفدوا ضمن سفارات دبلوماسية الى بلاط بعض الملوك في الشرق، كما هو الحال بالنسبة لألفاريز وتنريرو، وكان ذلك كله في العقود الاولى، من القرن السادس عشر، أما بعد ذلك فانه لم يرد اي ذكر لرحالة برتغالي. ولا تختلف الرحلات البرتغالية الى الشرق في القرن السابع عشر عن نظيرتها في القرن السابق من حيث طبيعة واشكال وفودها الى المنطقة حيث جاءت بصحبة الاساطيل البرتغالية أو ضمن سفارات دبلوماسية، ولكنها اختلفت من حيث أهدافها العامة وذلك لاختلاف بنية الامبراطورية البرتغالية نفسها. ففي الوقت الذي جاء فيه الرحالة البرتغاليون الاوائل في ذروة قوة واستقرار النفوذ البرتغالي في الشرق، وكان عليهم ابراز هذا الجانب في مدوناتهم، فان الرحالة المتأخرين قد قدموا في فترة اضمحلال النفوذ البرتغالي بسبب منافسة قوى اوروبية عديدة لهم، وتطلب منهم ذلك دراسة أسباب هذا التدهور والاضمحلال من ناحية، وتوجيه تقارير مستعجلة الى المسؤولين البرتغاليين عن وصول اي دولة اوروبية جديدة الى الشرق من ناحية أخرى. وبناء على ذلك، فاننا سنقوم بدراسة

الرحالة البرتغاليين على الاسس المذكورة اعلاه، وفقا للترتيب الزمني، مبينين اهداف كل رحالة ورحلته وقيمة المعلومات التي تركها عن منطقة الخليج العربي.

تومي بيريز . Tome Pires

يعد تومي بيريز شخصية متواضعة بالمقارنة مع بعض الرجال الذين برزوا في تاريخ البرتغال بالشرق خلال النصف الاول من القرن السادس عشر. فعلى حين نال البعض شهرة لكونهم قادة عسكريين لامعين كالبيوكرك، وآخرين كمحاربين وملاحين او مكتشفين، وحتى ككتاب عالميين مشهورين مثل باريوسا - الذي انتهى من تأليف كتابه بعد سنوات قليلة من كتاب «سوما اورينتال» The Suma Oriental لبيريز فان الاخير لم ينل شيئا من ذلك، وحتى مؤلفه قد طبع بدون أن يذكر اسمه عليه. (١١)

كاد مؤلف بيريز ان يندثر في طي النسيان، وان ينسى كونه سفيرا برتغاليا الى الصين، حيث توفي عام ١٥٤٠، بيد أن مساهمته في المعرفة المبكرة عن الشرق كانت ذات اهمية كبيرة. وبيريز نفسه كان شخصية تدعو للاهتمام، فمؤلفه «سوما اورينتال» كان قد احتوى على رواية مفصلة عن الشرق كتبت من أصل برتغالي وكان أول أوروبي أيضا يكتب عن ماليزيا، وان التفصيل الذي ذكره في هذا المجال لم يبعده فيه، من عدة وجوه، اي مؤلف آخر لاكثر من قرن او قرنين. وعلاوة على ذلك، فقد كان بيريز مراقبا متشوقا ووصافا لا يمل ولا يتعب، ومع أن اسلوبه الادبي كان ضعيفا، إلا أن بيريز استطاع أن يحتل مكانا لائقا بين الكتاب الاوربيين الاوائل في الشرق. (١٢)

ووفقا لسياسة السرية في مسألة

الاستكشافات التي تابعها العرش البرتغالي منذ النصف الاول من القرن الخامس عشر، فان المعلومات المهمة عن جزر التوابل في الهند الشرقية لم يكن يسمح لها بأن تتسرب الى أي جهة أجنبية. وعلى الرغم من أن اسبانيا قد كفت عن القيام بأي ادعاءات او مطالبة بما لقا في الثاني والعشرين من نيسان عام ١٥٢٩، فان الاسبان لم يتخلوا ابدا، كما أن جواسيسهم لم ينقطعوا محاولين الحصول على معلومات حول هذا الجانب حتى عام ١٥٨٠، عندما بدأت الفترة غير السعيدة في تاريخ البرتغال، والتي اصبحت فيها تحت هيمنة الاسبان لمدة ستين سنة، باندماج العرش البرتغالي بالعرش الاسباني. ولهذا فان المعلومات التي تركها بيريز في «سوما اورينتال» قد أصبحت معروفة، ولم يعد في مخطوطة لشبونة اي شيء من المعلومات السرية غير المعروفة. (١٣)

إن ما نعرفه عن حياة بيريز، منذ وصوله الى الهند حتى وفاته ليس أمرا نادرا، رغم انه ليس متكاملا، ولكن بالنسبة لنشأته في البرتغال فإن هناك عددا من الاشارات القليلة الغامضة. وكل ما نعرفه عنه من معلومات قد جاء من خلال كتابه «سوما اورينتال» وعدد من الرسائل التي كانت تحمل اسمه وتوقيعه.

كان بيريز ابن شخص يمارس الصيدلة، وقد كان في الاربعينات من عمره حينما شرع بالسفر الى الهند، التي وصلها عام ١٥١١، وبقي في كنانور في الهند في السنوات التالية، وأوفد الى الصين في بعثة دبلوماسية عام ١٥١٦. (١٤)

على الرغم من أن الجزء الاعظم من «سوما اورينتال» قد كتب في مالقا، فمن المحتمل أن بيريز كان قد بدأه واتمه في

الهند. وعلى أية حال، فإن «سوما اورينتال» عبارة عن تقرير بعثه بيريز الى الملك البرتغالي عمانويل، وربما هو جزء من المهمة التي كلف بها قبل رحيله الى لشبونة.

أسلوب الكتاب بعيد عن الوضوح، وقد يكون مرتبكا ومشوشا عندما يكتب المسميات والمعاني الأجنبية، بحيث يذكر أحيانا كلمات بدون معنى، بخاصة عندما تتعلق الكلمات بالاسماء او التعبيرات المحلية. على أن الصفة المميزة لكتاب «سوما اورينتال» هي انه كان مكرسا في الغالب للقضايا الاقتصادية، ولهذا فانها لم تعط الكاتب فرصة لظهار مقدرة الأدبية. ولكن، وعلى الرغم من ان المؤلف كان يفتقر بصورة عامة الى الاسلوب الابداعي، فقد أظهر بيريز معرفة حضارية جيدة بالمنطقة التي كتب عنها وكانت له لمحات مشرقة ينطلق بها قلمه. (١٥)

تعد معلومات الكتاب ذات أهمية كبيرة لاقطار الشرق الاقصى عامة خاصة وان المؤلف كان قد عاش لمدة سنتين ونصف هناك. واذا وضعنا جانبا روايات الرحالة الاوروبيين عن المنطقة في العصور الوسطى، فإن «سوما اورينتال» يعد اول كتاب يحتوى على معلومات مهمة عن تلك الاقطار والجزر الواقعة بين البنغال في الهند واليابان. وتعتبر المعلومات التي أوردها عن المناطق التي زارها بنفسه اكثر اهمية بالطبع من المعلومات الاخرى التي حصل عليها. ويعني هذا ان معلوماته عن الهند والصين اكثر اهمية من تلك التي أوردها عن الجزيرة العربية ومصر وفارس الى حدود كامبي في الهند، رغم مروره بتلك البلدان في أثناء رحلته من البحر الاحمر الى الصين. وليس هناك حاجة للتأكيد على القيمة الكبيرة

للمعلومات التاريخية والجغرافية والتجارية عن جميع الاقطار والناس الذين تعرض لهم، لان هذا الامر واضح من المعلومات الغزيرة التي احتواها المؤلف.

يحتوي «سوما اورينتال» في القسم الاول منه، على معلومات مهمة عن مملكة هرمز، ونشوء الدولة الصفوية، وكل الجزر الواقعة في الخليج العربي. كما أنه يؤكد على ناحية أساسية تتعلق بهرمز، أوردها الرحالة الذين أتوا من بعده «وهي أن الماء الموجود في المدينة يأتيها في جرار من مناطق أخرى، واذا لم يأت الماء إليها، فإن هرمز لاتخلو من عدد من الآبار، ولكن نوعية الماء الموجودة غير مستساغة لكثير من الناس». (١٦)

ويتطرق بيريز الى البحرين حيث يصف أنواع اللؤلؤ الموجودة فيها بقوله: «ان الجزيرة الرئيسية في الخليج هي البحرين وتمتاز بتوفر افضل انواع اللؤلؤ فيها حيث ليس له وجود في مناطق أخرى غيرها، ويشكل جزءا مهما من تجارة هرمز، ذلك لان هذا النوع من اللؤلؤ يمتاز بأنه أنصع بياضا واكثر استدارة من غيره». (١٧)

دورات باربوسا Durate Barbosa

عمل المؤلف في خدمة الحكومة البرتغالية في الهند كاتبا ومترجماً منذ عام ١٥٠٠ الى عام ١٥١٦ او ١٥١٧. وموهبته الفذة لم تكن في الترجمة فحسب بل تعدتها - كما نرى - الى الكتابة عن شعوب الشرق وممالكه. صدر كتابه باللغة الايطالية لأول مرة في مدينة البندقية عام ١٥٦٣، وباللغة البرتغالية عام ١٨١٣، بينما صدرت اول نسخة باللغة الانجليزية بعنوان «كتاب باربوسا The Book of Durate Barbosa» وذلك في عام ١٨٦٥ من قبل مؤسسة

هاكلايت مترجمة عن النسخة الايطالية، وصدرت نسخة محققة أخرى من قبل المؤسسة المشار اليها سنة ١٩١٨، وهي النسخة التي نقوم بعرضها في هذا البحث. وتكمن قيمة الكتاب في أنه أول المؤلفات البرتغالية بعد سنوات قليلة من دخولهم الى المحيط الهندي.

كان باربوسا من أسرة غير مشهورة ، وقد سافر عمه عام ١٥٠٠ الى الهند مع اسطول برتغالي وبقي هناك ، وتبعه والد باربوسا الى الهند في السنة التالية ، وربما يكون باربوسا قد سحب عمه في رحلته الأولى ، أو والده في رحلته الثانية^(٨) ومن الأدلة على سفر باربوسا مع جابرال - Pedro Alraves Gab- ral ، وهي الأكثر احتمالا ، ان الاخير نزل على الساحل الشرقي لافريقيا في سفالة ، موزمبيق ، مومباسا ، مالندي ، ثم جزيرة سوقطرة ، ومدخل البحر الأحمر فهرمز والخليج العربي حيث جاء في مؤلفه «انه وصف كل ما شاهده في هذا الفصل» واخيرا وصل الى الهند^(٩) .

لقد عمل باربوسا مع البوكيرك بصفة مترجم ، وكان مع الأخير اثناء مقابلته لراجا كنانور . كما كلف من قبل البوكيرك بالاشراف على بناء سفينتين كبيرتين في كاليكوت ، حيث كان من المفروض ان تستخدم هاتان السفينتان في الحملة البحرية المقترحة الى البحر الأحمر بعد زيارة هرمز ، ولكن البوكيرك لم يعيش لينفذ تلك الخطة . ولهذا فإنه من المحتمل ان يكون باربوسا قد رافق هاتين السفينتين عند شروعهما بالرحيل من الهند الى هرمز ، وربما نزل في المدينة الاخيرة ليتعرف على انباء

الحوادث الاخيرة في المنطقة^(٢٠) .

عاد باربوسا الى البرتغال عام ١٥١٧ ، ومن المحتمل انه انهى مخطوط كتابه ، وربما أضاف اليه بعض المعلومات خلال عامي ١٥١٧ - ١٥١٨ . ولكن يظهر ان باربوسا لم ينل الترقية التي كان يأملها مقابل خدمته لذلك التحق بخدمة الاسبان ولاقى حتفه في احدى المهمات الى جزر الفلبين في الحادي والعشرين من نيسان ١٥٢١^(٢١) .

يحتل كتاب باربوسا مكانة متميزة بين المؤلفات البرتغالية ، ذلك لأن مؤلفه عاش في اواخر القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر ، وهي فترة مليئة بحركة الكشف الجغرافية . وقد ارتحل بروح ملؤها التحري عن كل المناطق الجديدة ، ووصف المدن الرئيسية والموانئ ابتداء من رأس الرجاء الصالح وحتى الهند .

كتب باربوسا مقدمة دقيقة عن الدوافع لرحلته وغرض تأليفه الكتاب والطريقة التي جمع ودون فيها معلوماته ، حيث يقول : «انني رجل من مدينة لشبونة ، وقد قضيت الجزء الأكبر من حياتي في الابحار في البحار الشرقية ، واكتشفت باسم صاحب الجلالة (أي ملك البرتغال) ، كما سافرت على اليابسة وعبر مناطق عديدة مختلفة تقع على تلك البحار ، وقد رأيت وسمعت اشياء لم يسمعها أحد من اسلافي ، وقد اعترمت كتابتها لأجل ان تكون لصالح كل الناس ، رغم انني ارى تلك الاحداث واعلمها يوما بعد يوم ، محاولا ان ابشر في كتابي هذا بالمدن وحدود تلك الممالك التي زرتها أو التي علمت عنها من اشخاص موثوقين ، مبينا ما

هي الممالك الاسلامية وما هي عاداتها وتقاليدها .

كما لم انس تجارة تلك الاقطار وكل انواع التجارة الموجودة فيها ، والأماكن التي تنتج بها ، وإلى أي المناطق تحمل .

وفضلا عن تلك الاشياء التي شاهدتها ، فقد كان لدى الرغبة في ان استطلع الأمور من المسلمين والمسيحيين فيما يتعلق بعادات وتقاليدهم تلك الاقطار الذين هم أعرف بها ، وقد قارنت بصورة دقيقة الروايات بعضها ببعض الآخر حتى خرجت منها بمعلومات وثيقة ، والتي لم يكن حتى الرؤساء من ذوي الشأن راغبين في ان يكتب حول مثل هذه القضايا ، ولكن لما كنت مقتنعا بأن اعمل لاكتشاف الحقيقة ، فسوف لن أفشل في ذلك ، وقد انهيت كتابة هذا الكتاب في عام ١٥١٦م (٢٢) .

ويظهر ان قيمة كتاب باربوسا بصورة رئيسية في الوقت الحاضر هي جغرافية وبشرية ، تناولت اوصاف البلاد والأجناس التي مر بها وتعرف عليها ، اما اشاراته التاريخية فهي على جانب كبير من الاهمية ، ولكنه كان قد أعلن بصورة محددة بأن هدفه ليس ان يكتب تاريخا ، بقدر ما يتعرض لوصف الناس والبلاد ومنتجات الاقطار التي شاهدها (٢٣) .

لكتاب باربوسا اهمية كبيرة لشبه الجزيرة العربية عامة ولموانئها على البحر الأحمر والخليج العربي بصفة خاصة ، كما ان معلوماته عن التجارة في هذه الموانئ قد دونت بمعرفة شخصية ، وعكست بصورة واضحة طبيعة السياسة البرتغالية تجاهها ، حيث اشار اثناء حديثه عن عدن

قوله : «وتتدفق هذه التجارة (أي التجارة الشرقية) الى البحر الأحمر حيث تجد طريقها عن طريق القوافل الى الاسكندرية ، ومن هناك الى ايدي السلاطين المماليك ، ولكن قدر لها خلال سنوات قليلة ان تقع بيد الاتراك ، الذين كانوا قد سيطروا على حلب ، المركز التجاري لتوزيع بضائع الخليج العربي . ولم يتمكن البرتغاليون ان يوقفوا هذه التجارة بصورة تامة كما عملوا في الخليج العربي عن طريق امتلاكهم لهرمز ، ولكنهم كانوا قادرين فقط في السيطرة وتقييد هذه التجارة الى حد ما بصورة تدريجية ، مما أفقد الاتراك واحدا من مصادر مواردهم التقليدية» (٢٤) .

ولا تقل اهمية الكتاب في تعرضه لمدن الخليج العربي وموانئه . فقد اشار الى قريات بقوله : «وفيها تجارة مزدهرة ، وهنا - كما هو الشأن في المناطق الاخرى - توجد مواد غذائية كثيرة ، فضلا عن الخيول الممتازة في نوعيتها ، حيث كان التجار في هرمز يقدمون لشراؤها وتصديرها الى الهند» (٢٥) .

أكد باربوسا توفر الاسماك بصورة كبيرة في مسقط ، حيث ان هناك تجارة رائجة فيها ، لانه يصطاد بشكل واسع ، ويصار الى تملিحه وتجفيفه ، ويتعامل اهل هذه البلاد بهذه المادة مع عدد من الاقطار (٢٦) وقد تطرق الى الموانئ الاخرى في الخليج حيث ذكر جلفار - رأس الخيمة - حيث يقول : «وفيها يستقر اشخاص يمتلكون اموالا كثيرة ، فضلا عن وجود ملاحين ماهرين وتجار جملة . ويوجد هناك اسماك كثيرة وكميات هائلة من اللؤلؤ ، حيث تؤلف

المورد كبيراً للبلاد نتيجة حملها الى الهند والمناطق الأخرى^(٢٧).

واشار باربوسا الى رأس الخيمة بالاسم ، واورد اسماء بعض المناطق الأخرى التي تليها - ولكن بصورة غير مضبوطة ، مؤكدا ان سكانها من العرب ، وكانوا يؤكدون وجودهم خلال مطالبتهم لسكان القرى بدفع الأموال لهم ، وهم في حالة ثورة متكررة ضد ملكها (أي ملك هرمز على ما يبدو)^(٢٨).

كما تعرض بابوسا لمدينة البصرة ، وبخاصة تجارتها ، والى وجود كميات كبيرة من السلع والبضائع فيها كالتوابل والملابس القطنية التي يتم الحصول عليها مقابل كميات كبيرة من الحنطة والشعير^(٢٩) ولكن من الواضح ان الأوصاف التي اطلقها باربوسا على البصرة لم تكن بصفة شاهد عيان ، وانما استمدت من أقوال مسموعة ، فلم يكن هو ولا أي برتغالي آخر ، قد زار البصرة آنذاك ، رغم ان السفن قد وجدت طريقها الى مصب شط العرب^(٣٠).

على ان اهم ما تضمنه الكتاب من معلومات هو ما اورده لنا باربوسا عن مملكة هرمز ، والمناطق التي كانت تشملها . اذ جاء عنها وعن تجارتها بحدود اربعين صفحة مطبوعة ، وتعد المعلومات عنها أكثر تكاملاً حتى مما ذكره عن عدن . ويظهر بأن معلومات باربوسا عن هرمز قد استمدت من ملاحظاته الشخصية ، وهي مع ذلك ناقصة - كما سنرى - بالنسبة لمناطق الخليج العربي فيما يلي مضيق هرمز^(٣١).

على الرغم من ان باربوسا قد ادعى في مقدمة كتابه بأنه «يعمل لاكتشاف

الحقيقة» ، فإنه ظل يعبر عن وجهة النظر البرتغالية الاستعمارية شاء أم أبى . ففي اثناء حديثه عن قدوم الاسطول البرتغالي الى هرمز عام ١٥٠٧ بقيادة البوكيرك ، يقول : «وقد رغب (أي البوكيرك) ان يسود السلام معهم (أي مع سكان المنطقة) في جميع القضايا ، ولكنهم لم يرضوا مما دعا البوكيرك الى شن حرب على هذه المملكة ، وبخاصة على الموانئ البحرية ، حيث تسبب في الحاق خسائر كبيرة بهم^(٣٢) .

فالسلاام اذن من وجهة نظر باربوسا هو استسلام شعوب المنطقة لمشينة البوكيرك ، والا فانهم لا يعبرون عن رغبة في السلام . ويتغافل باربوسا عن بعض الحقائق التي تمس سمعة البرتغاليين من ذلك مروره السريع على حقيقة تخلي البوكيرك عن العمل في بناء قلعة هرمز الذي كان مرتبطاً بخيانة بعض قاداته العسكريين بخاصة جوادانوفيا Jao da Nova ، في حين ان الرواية التي وضعها باربوسا تضع اللوم في هذه القضية على سكان المنطقة مما دعا البوكيرك الى توجيه المزيد من التدمير للمدينة ، وذبح عدداً من سكانها ، واجبرهم على الخضوع للسيطرة البرتغالية^(٣٣).

وعلى الرغم من اهمية معلومات باربوسا عن الخليج الا ان ما يتعلق منها باسماء المناطق لم يكن دقيقاً وغير معروف للقارئ . من ذلك ما ذكره بالنسبة للبحرين حيث وضعها على الساحل الفارسي للخليج مع انها تقع على الساحل العربي ، وان كان قد وصف المنطقة بصورة مفصلة^(٣٤) . كما لم يرد ذكر الاحساء على الشاطئ العربي في خريطة باربوسا ، وهي مكان ذو اهمية كبيرة

انذاك ، في حين ان مثل هذه المناطق قد ظهرت على خريطة ريبنيل Reinel التي وضعت عام ١٥١٧^(٣٥) .

كما ان ضعف المعرفة الشخصية قد انسحب على رواية باربوسا حول مملكة هرمز في فارس ، اذ تضمنت قائمته بعض الاسماء التي تقع على الشاطئ العربي من الخليج ، والقائمة بمجموعها مضطربة ، وعلى غرار تلك التي تظهر في الخرائط المعاصرة يبدو انها وضعت بدون معرفة شخصية ، وان عددا قليلا منها فقط هو الذي يمكن معرفته أو تحديد موقعه^(٣٦) . فعلى سبيل المثال ، فإن باربوسا اورد اسماء بعض المناطق على الساحل الفارسي للخليج بصورة محرفة ، من ذلك Ly ma ، والمحتمل انه قصد بها Linga ، وهو الميناء الذي يقع على الساحل غرب جزيرة قشم ، و Arman ، وعنى بها جمبرون أو بندر عباس و corgam واراد بها جزيرة خارج أو خرج وما الى ذلك^(٣٧) .

الفاريز وتزيريو

إذا كان بعض الرحالة البرتغاليين قد اصطحبوا الاساطيل البرتغالية مثل بيريز وباربوسا لاداء خدمات معينة ، فإن البعض الاخر منهم قد اوفدوا لاغراض دبلوماسية كما هو الحال بالنسبة لفرانسييسكو الفاريز وانطونيو تزيريو . فالاول ارسل في سفارة برتغالية الى الحبشة نزلت في مصوع - على الشاطئ الغربي للبحر الاحمر - في نيسان عام ١٥٢٠ ، ثم عادت بعد ست سنوات من ذلك ، وهي تمثل اول بعثة معروفة في اوربا تصل الى بلاط الحبشة وعادت بسلام . ذلك لان مثل هذه السفارات لم يكن يسمح لها في الغالب بالعودة الى بلادها مرة أخرى^(٣٨)

كما حدث لكوفلهام عام ١٤٨٧ إذ بقي في الحبشة مدة ثلاثين سنة وتوفي فيها . وقد التقى الاخير بالفاريز في الحبشة وقص عليه اخباره .

لقد ذكر الفاريز - كما أورد ذلك في سبب تأليفه للكتاب - بأنه اوفد في سفارة من قبل الملك البرتغالي عما نويل ، وقرر بأنه سيدون كل ما يحدث له اثناء رحلته ، والاقطار التي يمر بها وعادات الناس وتقاليدهم وممارستهم . ولما كان الفاريز قد بقي في الحبشة ست سنوات لذلك فإن ما كتبه عنها - كما يقول - قد جاء عن مشاهدة واقعية في حين ان القسم الآخر جاء عن طريق السماع من اشخاص موثوقين^(٣٩) .

وفي الثامن والعشرين من نيسان عام ١٥٢٦ توجه الفاريز الى الخليج العربي على ظهر احدى السفن البرتغالية فوصله بعد شهر من اقلاعه ، حيث اقلته هذه السفينة الى ميناء مسقط مع خمس سفن برتغالية أخرى ، وذكر عند حديثه عن هذه المدينة ارتباطها بالبرتغاليين . على أن أهم ما في هذا المؤلف من معلومات ما أورده عن السفن البرتغالية في الخليج وتحركاتها ما بين مسقط وهرمز ، وبين الخليج والبحر الاحمر^(٤٠) .

اما بالنسبة لانطونيو تزيريو Antonio Tenreiro ، فهو برتغالي يهودي ، أرسله الحاكم البرتغالي في الهند ، في بعثة دبلوماسية الى البلاط الفارسي بحدود عام ١٥٢٠ ، لرفع الشكوى عن بعض حالات النهب التي تتعرض لها التجارة البرتغالية في هرمز ، ومتى وصل الى هذه المدينة عن طريق البحر في مدينة غوا (جوا) في الهند^(٤١) . بقي تزيريو في هرمز حوالي خمس اوست سنوات ، وفي نهاية تلك الفترة أرسل من قبل حاكم هرمز دى مندوزا de Mendoza

Christopher الى ملك البرتغال برسائل هامة عام ١٥٢٨ (٤٢) .

من المعروف بأن تنريرو لم يترك رواية مكتوبة عن رحلته ولكن هناك ناحيتين أساسيتين بالنسبة له وهما :

١ - أنه اول رحالة اوروبي استعمل الطريق الصحراوي البري (طريق البصرة- حلب) ، ولهذا فقد حمل معه رسالة من حاكم البصرة ، يطلب فيها الى الاخير أن يؤمن لتنريرو عبوراً آمناً عبر الطريق الصحراوي ، وقد فعل حاكم البصرة هذا بالفعل حيث وصل تنريرو الى حلب ، ومنها سافر الى طرابلس ومن هناك اقلع على ظهر سفينة ، حيث وصل الى البرتغال عن طريق ايطاليا (٤٣) .

٢ - يبدو أن استخدام تنريرو للطريق الصحراوي البري كان يمثل جزءاً من السياسة البرتغالية آنذاك فعلى الرغم من أن السياسة البرتغالية كانت تقوم على احتكار الطريق التجاري البحري الى الشرق وجعله مقصوراً على السفن البرتغالية ، وعرقلة النقل عبر الطرق البرية لاغراض التجارة ، الا أن البرتغاليين وجدوا أن هذا الطريق هو اكثر الطرق ملائمة للوصول الى ممتلكاتهم في الهند وفي الخليج العربي ، باعتبار انه أقصرها واكثرها سرعة وهكذا بدأ الرسميون البرتغاليون والرحالة والتجار والمبعوثون برسائل خاصة يتخذون طريق البصرة - حلب عندما يتطلب الامر مواصلات سريعة (٤٤) .

الرحالة البرتغاليون المتأخرون وطبيعة السياسة البرتغالية

حدث تغير كبير في ظروف البرتغاليين في الشرق في الربع الاخير من القرن السادس

عشر ، وبالتالي ظهر ذلك فيما كتبه الرحالة البرتغاليون آنذاك . إذ تعد هذه الفترة من الفترات الحرجة في تاريخ البرتغاليين في الشرق ، ذلك لأنه في عام ١٥٨٠ فقدت البرتغال استقلالها وضمت الى عرش اسبانيا في عهد الملك فيليب الثاني . ومع أن حكومة مدريد تركت للبرتغاليين ادارة ممتلكاتهم فيما وراء البحار كما كانت من قبل ، الا ان هذا الحدث شكل نقطة بداية حقيقية لأقول مجد البرتغاليين في الشرق (٤٥) .

لقد زعر البرتغاليون من وصول قوى أوروبية جديدة الى الشرق إذ كان عليهم أن يواجهوا المنافسة الحادة على الصعيدين التجاري والسياسي من جانب الهولنديين والانكليز . إذ كان الهولنديون (سكان الاراضي الواطئة) تابعين لعرش اسبانيا ، وحينما حاول فيليب الثاني سحق التجارة الهولندية باتخاذ اجراءات مشددة لوقف كل تعامل تجاري بين البلدين ، بالقضاء القبض على السفن الهولندية الموجودة في المياه الاسبانية ، لم يكن للهولنديين مع الهند والشرق الا تجارة غير مباشرة من خلال لشبونة . لقد كانت سياسة فيليب أن يستثنى الهولنديين من التعامل مع المستعمرات البرتغالية في الشرق ، وبدلاً من أن يحطم هذا المنع روح المغامرة لدى الهولنديين الذين ادركوا حقيقة الارباح الكبرى التي حصل عليها البرتغاليون من تجارة التوابل بوجه خاص ، أدى ذلك الى تحفيزهم على أن يقوموا باتصال مباشر مع الشرق (٤٦) . وعلى هذا الأساس أبحر الهولندي جان هيوجين فان لنشوتن Jan

١٦٠٠ ، قرر أن يعود عن طريق جزر الفلبين . ذلك لان القائد العام في مالقا كان يعتزم إرسال إحدى السفن الى الحاكم الاسباني في الفلبين تحذيراً من قدوم الهولنديين الى تلك المنطقة وبحارها^(٥٠) . ومثل ذلك نجده في رحلة غودينهو عام ١٦٦٣ حيث وضع اللوم على الهولنديين لقضائهم على البرتغاليين ، عن طريق استبعادهم من سيلان ومالقا ، وحرمانهم نهائياً من تجارة التوابل . وأضاف أن الضربة القاضية التي وجهت لهم - اي للبرتغاليين - كانت من قبل الانجليز الذين هاجموهم في القارة ، وساعدوا الفرس في الاحتلال النهائي لهرمز^(٥١) .

بيدرو تكسيرا . Teixeira

لا يعرف إلا القليل عن بيدرو تكسيرا وذلك مما ذكره هو عن نفسه . ومن هذا القليل يبدو انه ينتمي الى احدى الأسر اليهودية البرتغالية التي كانت مستقرة على الاغلب في لشبونة ، ولكنه لم يكن يجزئ على التصريح بديانته ، وربما لم يترب على العقيدة اليهودية . ولعله بإمكاننا الاستنتاج مما رواه ، بأنه خلال الجزء الاعظم من حياته ، ومن خلال رحلاته ، كان مسيحياً ، وربما كاثوليكياً ورعاً^(٥٢) . ويبدو أن تكسيرا ، وعلى غرار تنريو الرحالة البرتغالي اليهودي السابق في القرن السادس عشر ، كان يتظاهر لبعض الوقت بأنه مسيحي لأن ذلك كان يلائم ظروف السفر في الاقطار الشرقية أكثر^(٥٣) .

أما بالنسبة لوالديه ، ولادته ، وحياته المبكرة ، فيقف تكسيرا صامتاً عن ذكر اي شيء عنها ما عدا قوله بأنه في شبابه قد

Huyghen Van Linschoten الى جزر الهند الشرقية عام ١٥٨٣ ، وبقي هناك مدة تقارب ثلاثة عشر عاماً ، وجمع قدراً كبيراً من المعلومات فيما يختص بالمنتجات ذات القيمة التجارية ووسائل النقل وطرق التجارة . وحينما عاد عام ١٥٩٢ نشر ذلك و اضاف دليلاً عملياً للملاحين وصف فيه الطريق من لشبونة الى الشرق والتيارات والرياح التجارية والمراfiء والجزر وما شاكلها في البحار الهندية ، مع خرائط ورسوم بيانية^(٥٤) .

على ان القيمة الأساسية لما نشره لينشوتن ، هي أتاحة الفرصة للاطلاع على فساد الاستعمار البرتغالي ، ذلك الفساد الذي استغلته القوى الناشئة ، الهولندية والانكليزية ، للقضاء على البرتغاليين في الخليج والشرق الاقصى . وعندما نشرت الترجمة الانكليزية لاعمال لينشوتن عام ١٥٩٨ ، كانت بمثابة «نفخة بوق»^(٥٥) لتأسيس شركة الهند الشرقية الانكليزية عام ١٦٠٠ ، وحملت في طياتها الدعوة لمشاركة الانكليز في مضمار التجارة ومد النفوذ الى الربوع الهندية . وعلى ذلك فقد كان لدى حاكم هرمز البرتغالي تعليمات خاصة على اثر وصول الانكليز الى منطقة الخليج في اواخر القرن السادس عشر ، تدعو لحماية المدينة من الخطر الجديد ، ذلك لان الخليج - على حد قوله - «هو المنفذ الرئيسي الذي يودون دخوله»^(٥٦) .

انعكست هذه الوضعية في اعمال الرحالة البرتغاليين والمهمات التي أنيطت بهم خلال القرن السابع عشر ، فعلى سبيل المثال ، عندما أراد تكسيرا ان يعود الى البرتغال عام

كرس نفسه لدراسة التاريخ^(٥٤) . أما الحرفة او التجارة التي كان يمارسها تكسيرا في اثناء ذهابه الى الشرق فهو أمر غير معروف ، ولكن يبدو بأنه كان طبيباً ومضارباً وتاجراً للجواهر ، وهو بجانب ذلك كان مؤرخاً . وعلى الرغم من ذلك كله ، فقد كان تكسيرا افضل بكثير في كتابة يوميات رحلته ، واعطاء الانطباعات الشخصية عنها ، مما هو في أي شيء آخر^(٥٥) .

لم يذكر لنا تكسيرا أيضاً سبب توجهه الى الهند او السنة التي أبصر فيها من أوروبا الى آسيا . ولكن يستنتج مما ورد من اشارات بأنه غادرها عام ١٥٨٦ ووصلها في السنة التالية على ظهر إحدى سفن الاسطول البرتغالي . ذلك لان الاسطول البرتغالي في البحر الاحمر وشرق افريقيا كان قد عانى من اندحار على يد الاتراك العثمانيين ، فأراد البرتغاليون أن يثأروا لذلك عن طريق ارسال اسطول قوي لمواجهتهم مرة أخرى . ولما علم تكسيرا بأن هذا الاسطول سيتوجه نحو هرمز ، بعد إنجاز مهمته ، حيث كانت الاوامر الصادرة الى قائد ذلك الاسطول آنذاك تدعوه لبناء قلعة في مسقط للمحافظة عليها من الاتراك لذلك قرر تكسيرا بأن يستغل هذه الفرصة لمرافقته حيث ربما لا تتاح له فرصة أخرى ، وقد حصل على إذن بذلك فاصطحب الحملة التي خرجت عام ١٥٨٧^(٥٦) . وبعد انتهاء هذه الحملة توجه الاسطول البرتغالي الى الخليج العربي وألقى مراسيه في مسقط حيث أبدى تكسيرا أعجاباً كبيراً بكمية الاسماك الكثيرة التي كان يجري اصطيادها هناك ، ثم أبحر الى هرمز ولكن باستثناء ما ذكره تكسيرا عن مسقط

فإنه يتغاضى عن هذه الحملة ولا يذكر شيئاً عنها ولا عن مسقط ، كما هو الحال في اثناء مروره بها عام ١٦٠٤^(٥٧) .

لقد ارتحل تكسيرا كثيراً في الشرق ، وعاش في الهند لمدة طويلة ، لهذا يبدو - من استنتاجات عرضية في كتابه بأنه كان قد قضى عام ١٥٩٣ ، في الهند ثم تركها نحو هرمز حيث استقر هناك حتى عام ١٥٩٧ . ومهما يكن غرض الزيارة ، فيبدو من الواضح بأن تكسيرا كان قد كرس معظم وقته للقضايا التي تتعلق باللغة الفارسية ، ودراسة تاريخ فارس وهرمز ، والترجمة بصورة مختصرة لحوليات ميرخواند في كتابه «وصفة الصفا» ولطوران شاه في كتابه «ملوك هرمز» . وفيما يتعلق بهذا الامر ، يخبرنا تكسيرا في المقدمة التمهيدية لهذا الكتاب ، وفي اشارات أخرى في كتابه انه كان شاهد عيان للأحداث في هرمز والتي وقعت خلال إقامته فيها . كما انه ، وفي كتاب ملوك هرمز أيضاً ، يعطينا وصفاً مختصراً عن الجزيرة كما بدت عليه أثناء إقامته فيها . وفي نفس هذه السنة غادر هرمز الى الهند ، وذلك بصحبة الاسطول البرتغالي الذي كان يتجه الى الشرق الاقصى على اثر توارد الانباء من الهند عن هجوم هولندي متوقع على الممتلكات البرتغالية في الشرق الاقصى^(٥٨) . عاد تكسيرا الى بلاده عام ١٦٠٠ ، وقبل أن يغادر مالقا في الهند ، كان قد عهد الى بعض أصدقائه بمبلغ كبير من المال من اجل ايصاله الى البرتغال عن طريق السفن البرتغالية الذاهبة من الهند الى البرتغال . ولكنه اصيب بخيبة أمل عند وصوله الى لشبونة وذلك لعلمه بعدم وصول المال ،

ولهذا فقد بقي هناك في انتظاره لمدة سنة ونصف دون نتيجة ، وعلى ذلك قرر العودة الى الشرق مرة أخرى ، حيث ابهر على متن إحدى سفن الاسطول الازاهية الى الهند في الثامن والعشرين في آذار ١٦٠٤ ، فوصلها في تشرين الاول من السنة نفسها^(٥٩) .

في خلال أقل من أربعة أشهر من وصوله الى الهند ، قرر تكسيرا العودة مرة أخرى الى بلاده . وبعد ان ضجر من الاسفار البحرية ، والرغبة في أن يرى مناطق جديدة ، قرر ان يقوم برحلة برية الى اوروبا عن طريق الصحراء . ولذلك ترك جوا في التاسع من شباط ١٦٠٤ مبحراً على إحدى السفن البرتغالية الى الخليج ، حيث وصل هرمز في السابع عشر من آذار ، ومن ثم توجه الى البصرة ، ولما كان النهر غير قابل للملاحة في هذا الوقت قرر أن يصطحب إحدى القوافل الازاهية بواسطة الطريق الصحراوي الى حلب ، هذا الطريق الذي استمر يستخدم من قبل ممثلي الوكالات السياسية البرتغالية ، القادمين من جوا الى لشبونة^(٦٠) ومن سواحل بلاد الشام الى فينيسيا ، ومنها الى مدينة أنتويرب ، حيث كانت نهاية رحلته . وهناك طبع كتابه عن أصل وتسلسل ملوك فارس وهرمز ، حيث تناول الجزء الأخير تاريخ مملكة هرمز وملوكها حين احتلال البرتغاليين لها ويذكر ملوكها من ١٥١٥ - ١٦٢٢ وعلاقتهم بالبرتغاليين . كما كتب رحلته من الهند الى ايطاليا ، وكانت وفاة تكسيرا في منتصف القرن السابع عشر على اليهودية^(٦١) .

لرحلة تكسيرا التي نشرها و. ف . سنكلير وطبعتها مؤسسة هاكلات في لندن

عام ١٩٠٢ أهمية خاصة عن تاريخ الخليج ، ذلك لان الرجل مر بالمنطقة عدة مرات برفقة الاسطول البرتغالي . ومع ان المعلومات التي تركها هذا الرحالة عن الموانئ العربية على الخليج قليلة ، كمسقط مثلاً التي مربها ، كما ذكرنا ، الا أنه أشار الى ناحية مهمة آنذاك وهي أن أغلبية السكان على الساحل الشرقي في الخليج كانوا من العرب . وظهر كيف ان جزر «نخيلو» و«ريق» وغيرهما ، وكلها مأهولة بالعرب ، كانت ممتعة من البرتغاليين ، وتتحين الفرصة للثورة ضدهم ، إذ قال : «ان رجال ريق لم يكونوا على صلح مع البرتغاليين ، ذلك بسبب المظالم التي كانوا ينزلونها بهم»^(٦٢) .

تبرز أهمية رحلة تكسيرا في وصفة المركز للمناطق العراقية الواقعة على الطريق الصحراوي ما بين البصرة وحلب . فبالنسبة للبصرة ، المدينة الخليجية ، ترك لنا اوصافاً مفصلة عن هذه المدينة والحكومة القائمة بها آنذاك ، واسطول البصرة وحاميتها ، وعن الحالة العمرانية فيها^(٦٣) كما تحدث عن اسواق المدينة ، والمنتجات الرئيسية فيها ، وعن تجارتها مع مناطق الخليج العربي الأخرى^(٦٤) ، وهي معلومات قلما تتوفر بمثل هذه الدقة في المصادر المحلية المعاصرة .

مانويل غودينهو Godinho

عاش الاب مانويل غودينهو - وهو يسوعي برتغالي - ما بين ١٦٣٠ - ١٧١٢ ، وهي الفترة التي تمثل نهاية عصر النهضة في اوروبا وبداية العصور الحديثة . واذا كان

لهذه الفترة من تأثير ، فانها قد جعلت منه ، على عكس الرحالة الأوائل شخصاً يمتاز بروح حديثة ، فظهر كاتباً ذا ذكاء بارع يمتاز بالوضوح والرؤية الفلسفية الشاملة لحركة التاريخ ، ولعل هذا ما يمكن أن نلمسه في رحلته الأصلية بالبرتغالية المعنونة :

«Relations of the new route Father Mannel Godinho took from India to portugal in the year 1663» .^(٦٥)

يفتح غودينهو كتابه بمقالة رائعة عن اضمحلال الامبراطورية البرتغالية ، حيث يقول :

«ان الامبراطوريات مثل الامبراطورية الرومانية قد مضت للزوال ، والان فان الامبراطورية البرتغالية تمضي في نفس الطريق . وان الهند تقع الان في يد الهولنديين ، والى حد ما بيد الانكليز ... ان قصة الامبراطورية البرتغالية لم تنته هنا ، ولكن عصر الاستكشافات البرتغالية قد جاء الى نهايته ... لقد استطاعت امبراطوريات أخرى أن تبني امبراطوريات اكبر من الامبراطورية البرتغالية ، ولكن يعود للبرتغاليين الفضل في الاكتشاف اكثر من اي امبراطورية أخرى تعتمد على القوة البحرية»^(٦٦) .

على اية حال ، فقد قام الاب غودينهو عام ١٦٦٣ برحلة برية من الهند الى البرتغال . ولعل من المعتاد بالنسبة لغودينهو كرحالة أن يعطينا غرض رحلته ، ولكنه نكص عن ذلك ، على أساس طبيعتها السرية ، ولكنه اكد لنا بأنه «في خدمة جلالته اي الملك البرتغالي» ، والله والبشر ، وانها تتعلق بخلاص الاف من

الارواح ، والابقاء على القوة البرتغالية في الهند»^(٦٧) . اذن يبدو بأن رحلة غودينهو لم تكن رحلة عادية ، وان الرجل كان يحمل الى بلاده وثائق سرية هامة جداً ، ويجب أن تكون ذات أهمية سياسية ، وان لم يبح غودينهو بذلك . على ان المعلومات الاخرى التي ذكرها الرحالة في كتابه حول الاماكن التي مرّ بها قد قدمت بصورة واضحة وبارعة الايجاز ، ومن الجلي بأنها قد وضعت لغرض الاستفادة منها من قبل الحكومة البرتغالية^(٦٨) .

باشر غودينهو رحلته من الهند فمر بسورات حتى وصل الى الخليج العربي . وبعد ذلك واصل رحلته الى كمبيرون وكنج ومنها على ظهر سفينة الى البصرة . وكان من المفروض أن يسافر عن طريق النهر الى بغداد ، ولكنه وجد بأن ذلك يحتاج الى الانتظار لبعض الوقت ، فدفعه حماسه في إيصال الرسائل السرية الهامة المستعجلة الى البرتغال والتي عهد اليه بنقلها ، الى اتخاذ الطريق الصحراوي والمار بالنجف والحلة وبغداد وعانة فحلب ، ومن ثم سافر الى مارسيلية فلشبونة حيث وصلها في الخامس والعشرين من تشرين الثاني عام ١٦٦٣^(٦٩) .

تلقي رحلة غودينهو لنا الضوء على معلومات مهمة بالنسبة لمنطقة الخليج العربي وعلى التطورات الجارية فيه . فعندما يتحدث عن كمبيرون يشير الى انها تمثل مركزاً رئيسياً في الخليج ، ويحاول الفرس ان ينقلوا اليها تجارة هرمز الفخمة^(٧٠) وان اكثر ممثلي الوكالات الاوروبية في المدينة هم الانكليز

والبرتغاليون، ولكن بالنظر لان الانكليز كانوا قد ساعدوا الشاه في احتلال هرمز، فانهم يتمتعون بالاستثناءات من الضرائب الثقيلة^(٧١).

أتحت لغودينهو اثناء بقاءه هناك الفرصة لان يلقي نظرة على ما تبقى من مدينة هرمز، حيث سرد لنا كيف أصبح البرتغاليون سادة في المدينة منذ عام ١٥١٤، واصبحت هرمز تحتل المكانة الثانية بعد جوا من حيث القوة والمنعة بالنسبة للبرتغاليين، الى أن سقطت بيد الشاه عباس عام ١٦٢٢، وذلك بمساعدة الانكليز، حيث قام الطرفان بطرد البرتغاليين منها ومن كل جزر وموانئ الخليج العربي، الاخرى. كما قام الشاه عباس بتهديم كل المنشآت البرتغالية، وأجبر الرعايا على الهجرة ولم يترك في الجزيرة غير حامية فارسية مؤلفة من ثمانمائة شخص^(٧٢).

أما بالنسبة للبصرة فقد قال عنها بأنها أعظم مركز تجاري في تلك البحار. وهي تضم حوالي مائة ألف شخص من مختلف الاجناس، وعددا هائلا من التجار، حتى

إذا جاءت مائتا سفينة الى مينائها فإن بإمكانهم تفريغ حمولتها في خلال شهر على ان الحاجة الملحة بالنسبة لهذه المدينة هي الاخشاب، إذ لا يتوفر فيها الاخشاب الصالحة لبناء السفن لافيهها ولا في الساحل الفارسي للخليج، ولهذا فان البصرة تستوردها بأسعار عالية من الهند. أما حكومة البصرة، فانها تحكم من قبل أمير عربي وراثي، نادراً ما يدفع الضريبة والولاء للباب العالي^(٧٣).

وهكذا تعكس لنا هذه الصفحات صورة عن اهم الرحالة البرتغاليين الذين زاروا منطقة الخليج العربي خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر. كما تعكس لنا صورة حية عن كثير من الوقائع التاريخية والجغرافية والبشرية للمنطقة، التي قلما نجد لها نظيراً في المصادر المحلية. وفضلاً عن ذلك فانها تكشف لنا طبيعة التطورات التي مرت بها السياسة البرتغالية خلال هذين القرنين، وعلاقتها بمنطقة الخليج، وحالة التدهور والانحلال التي آلت اليها، والصور التي كان يظهر بها الرحالة البرتغاليون في تمثيلهم لتلك السياسة، وهذا ما يعطي القيمة الحقيقية لرحلاتهم.



الهوامش

- (١) ج. ج. لوريمر، دليل الخليج، القسم التاريخي، طبع بمطابع علي بن علي، الدوحة، قطر، د. ت، ج ١ ص ٩
- (٢) المصدر نفسه، ج ١ ص ١٠ - ١١ .
- (٣) جاكين بيرين، اكتشاف جزيرة العرب، نقلة الى العربية قذري قلججي، منشورات الفاخرية، الرياض، د. ت، ص ٥٧ - ٥٨ : انظر ايضا C.F. Beckingham, some early travels in Arabia, Journal of the Royal Asiatic Society (1946), P. 146.
- (٤) Douglas Carruthers, the desert route to India (Printed in 1928 and reprinted in 1967), P. XIII.
- (٥) Beckingham, OP. Cit, P. 165.
- (٦) الدكتور السيد مصطفى سالم، الفتح العثماني الاول لليمن ١٥٣٨ - ١٦٣٥، (معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، ط٢، ١٩٧٤، ص ٤٨ .
- (٧) للتفاصيل انظر سونيا. ي. هاو، في طلب التوابل، ترجمة محمد عزيز رفعت (مكتبة نهضة مصر، القاهرة، ١٩٥٧) ص ١٣٦ - ١٥١ : ارنولد ت. ويلسون، الخليج العربي، نقله الى العربية وقدم له الدكتور عبد القادر اليوسف (مكتبة الامل، الكويت، د. ت) ص ٢٠٣ .
- (٨) من الملاحظ ان عدداً كبيراً من الرحالة البرتغاليين، كانوا من اليهود ويعود سبب ذلك لمعرفتهم باللغة العربية .
- (٩) سالم، المصدر السابق، ص ٤٨؛ هاو، المصدر السابق، ص ١٥٣ - Beckingham, Op. Cit, P. 158
- (١٠) هاو، المصدر السابق، ص ٢٢٦ .
- (١١) Tome pires, the suma oriental of Tome pires an account of the East, from the Red Sea to Japan written in Malacca and India in 1512-1515, translated from the Portuguese by Armando Cortesao, London, Hakluyt Society, 1944), Vo. I, P. XVIII.
- (١٢) Ibid, PP. XVIII - XIX.
- (١٣) Ibid, PP. LXVII - LXVIII.

- Ibid, PP. XIX - XXI. (١٤)
- Ibid, P. LXXIII. (١٥)
- Pires, OP Cit, P. 19. (١٦)
- Ibid. (١٧)
- Durate Barbosa, the book of Durate Barbosa An account of the countries bordering on the Indian Ocean about the year 1518 A.D., translated from the Portuguese text by Mansul longworth Dames (London, Hakluyt Society, 1918), Vol. 1, P. XXXIV. (١٨)
- Ibid, Vol. I, P. XXXV. (١٩)
- Ibid, Vol. I, PP. XLIV - XLV. (٢٠)
- Ibid, Vol. I, P. XLIX. (٢١) انظر ايضاً «مجلة الوثيقة» البحرينية، العدد الاول، السنة الاولى (يوليو ، ١٩٨٢) ، ص ١١٤ حيث يرد تعريف موجز باسماء بعض الرحالة البرتغاليين ورحلاتهم .
- Barbosa, OP. Cit, Vol. I, PP. 1-2. (٢٢)
- Ibid, Vol. I, P. LVIII. (٢٣)
- Ibid, Vol. I, P. LXI. (٢٤)
- Ibid, Vol. I, P. 70. (٢٥)
- Ibid, Vol. I, P. 71. (٢٦)
- Ibid, Vol. I, P. 73. (٢٧)
- Ibid, Vol. I, P. 74. (٢٨)
- Ibid, Vol. I, P. 89. (٢٩)
- Ibid, Vol. I, P. 90 "note of the translator". (٣٠)
- Ibid, Vol. I, P. LXII. (٣١)
- Ibid, Vol. I, P. 101. (٣٢)
- Ibid, Vol. I, P. 101. (٣٣)
- Ibid, Vol. I, P. 81. (٣٤)
- Ibid, Vol. I, P. 76. (٣٥)
- Ibid, Vol. I, P. 75. (٣٦)
- Ibid, Vol. I, P. 77. (٣٧)
- Francisco Alvares, the Prester John of the Indies, being the narrative of the Portuguese embassy to Ethiopia in 1520, ed. by C.F. Beckingham and G.W.B. Huntingford, Cambridge, Hakluyt and Society, 1961, Vol. I, PP. 1-2. (٣٨)

- Alvares, OP. Cit, PP. 38-9. (٣٩)
- Ibid, Vol. II, P. 473. (٤٠)
- Hugh Murray, Historical account of discoveries and travels (Edinburgh, 1820) Vol I, P. 367. (٤١)
- Ibid, P. 379; See also C.P. Grant, the Syrian desert (A. & B Black Ltd, London, 1937), P. 83. (٤٢)
- Murray, OP. Cit, P. 379. (٤٣)
- Carruthers, Op. Cit, P. XVI; Grant, Op. Cit, P. 83. (٤٤)
- (٤٥) مصطفى عقيل الخطيب، التنافس الدولي في الخليج العربي ١٦٢٢ - ١٧٦٣، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ١٩٨٠ (ص ٢٥).
- (٤٦) ويلسون، المصدر السابق، ص ٢٧١.
- (٤٧) المصدر نفسه، ص ٢٧٢.
- (٤٨) المصدر نفسه.
- Carruthers, Op. Cit, P. XIV. (٤٩)
- Pedro Teixeira, the Travels of Pedro Teixeira, translated and annotated by William F. Sinclair (London, Hakluyt Society, 1902), P. XVIII. (٥٠)
- Murray, Op. Cit, P. 385. (٥١)
- Teixeira, Op. Cit, P. I. (٥٢)
- Grant, Op. Cit, P. 85. (٥٣)
- Teixeira, Op. Cit, P. II. (٥٤)
- Grant, Op. Cit, P. 85. (٥٥)
- Teixeira, Op. Cit, P. V. (٥٦)
- Ibid, P. VII, 18. (٥٧)
- Ibid, PP. XVI - XVII. (٥٨)
- Ibid, P. XVII. (٥٩)
- Grant, Op. Cit, P. 87. (٦٠)
- Teixeira, Op. Cit, P. XXIV. (٦١)
- Ibid, P. 24. (٦٢)
- Ibid, PP. 25-9 (٦٣)
- Ibid. (٦٤)
- Charles David Ley, (ed.), Portuguese Voyages 1498-1663 (J. M. Bent & Sons, London, 1947), P. XX. (٦٥)

- Ibid, PP. XX-XXI. (٦٦)
Murray, Op. Cit, Vol I, P. 384. (٦٧)
Ley, Op. Cit, P. XX. (٦٨)
Murray, Op. Cit, PP. 385-408. : للتفاصيل انظر (٦٩)
Ibid, Vol. I, P. 393. (٧٠)
Ibid, Vol. I, P. 393. (٧١)
Ibid, Vol. I, P. 394. (٧٢)
Ibid, Vol. I, P. 395-6 (٧٣)

